مجنـون الـورد

محمـد شكـري

الاطفـال يصخبـون في الحـي .

استيقظت وجلست . تحلت ساقاها على حافة مضجعها . حنت راسهـا امام . ياكلان خبزا مغموسا في الزيت . يشربان شايا أخضـر باردا تركتـه امهما في الابريق . ينظران اليها ماضغين . شاردة وداشخة . تمسك راسهـا بيديها وتضغط . تنهض مترنحة واضعة يدها على فمها . تدخل المرحاض ، رائحته الكريهة تسعفها على القيء القوي . هلام اصفر . صوت قيئها مخنوق مثل حيوان يذبح . يمد لها اخوها الاكبر سطلا من البلاستيك فيه ماء . تتهالك على المضجع . تشهق . الاخ الاصغر يخرج الى الحي . الآخر جالس صامتا امامها . تجلس . يتناظران بحزن . عيناها دامعتان ، ذابلتـان . تبسـم ، يبسمان . استجاعته بحركة من راسها ويديها . تجلسه جنبها . تضمه الـى صدرها باسمة . تمسك وجهه الصغير بين يديها باسمة . تمسح بيديها رشح دموعه باسمة .

الاطفال في الحي يلعبون الكرة صاخبين . تعطيه قطعة نقدية . يبسم . يبوس خدها ويخـرج .

في الحي صار البؤس اكثر صداقة للصغار والكبار . الجمال فيه يطل في فضول من الابواب الصغيرة الكالحة . هو الجمال نفسـه الذى يبـاع في شوارع المدينة الجديدة .

شاعر الحي الكسيح شاهد على ما يحدث منذ ان كان اهل هذا الحي كلهم يسكنون الاكواخ .

يعلم الصغار والكبـار ،
بالأجـر والشكـران ،
يقرا ويكتب رسائل الاحباب ،
يـؤازر المصـاب بالقـرآن ،

والعشيق والمعشوق بالاشعار ،
يـلاعـب الاطـفـال ،
يخرف مع الشيوخ في المساء .

طفلة تاكل رغيفا وشوكولاته . جالسة على عتبة منزلها تنظر الى اشياء الحي . تستذوق ما تاكله . طفل أمامها في يده وردة حمراء .. يرقص ساقها بين أصابعه النحيلة الوسخة . جوعه في عينيه يغازل رغيفهـا . تكف عـن الاكل والكسرة قريبة من فمها . ناظرا اليها يشمها واليها يباسمها يغريها . رقصة الجوع في عينيه ، رجليه ، يديه ، في كل جسمه . عيناها الحالمتـان تطلبان وردته الراقصة . امتدت يده الى الفم ويدها الى الانف .

تنهض . تستقطر الابريق في أحد الكاسين اللزجين بالزيت . ترشف من الثمالة العكرة . تفرك عينيها . تخرج من حقيبتها علبة سجائر شقراء . تجلس على مضجعها . تشعل واحدة . تنظر الى صورة أبيها في اطار صغير بال على الجدار الراشح . تدخن ناظرة الى صورة أبيها . تسعل بقوة . تتذكر سعال أبيها وخيوط الدم يبصقها . تدوخ من جديد . تقوم الـى المرحـاض ساعلة وترمي نصف السيجارة . تقيء بجهد خيطا رفيعا من اللعاب . تتذكر لعاب السكارى ولغوهم وعنفهم وسط صخب الغناء وضباب الدخان . تذهب أمام مرآة صغيرة عالقة قرب مضجعها . وجهها الليلي في لون الزيت . محتقن وعيناها راشحتان . تشبك يديها أمامها . تضغط على عضلات كتفيها بحركة متواترة وصدرها يخفق مندفعا الى الامام . جست نهديها . وجدتهما صلبين. جلست على مضجعها زافرة . كشفت عن ساقيها ثم حكت شعرها الكث الذي لم تحلقه منذ مدة طويلة . تحب كثيرا عريها في عينيها أكثر مما تحبه في عيون الرجال . قيل في أسفل جسدها من الغزل أكثر مما قيل في اعـلاه .

مجنون الورد . هكذا سماه اهل الحي . الشاعر الكسيح شاهد . مجنون الورد يعيش مع أمه في كوخ . يذهبان معا كل صباح الى المدينة ولا يعودان الا مساء . هي تتسول وهو يوزع وروده على النساء والفتيات الجميـلات . لا شيء يطلب منهن . ورودة يشتريها من مال أمه او يسرقها . قبض عليـه وحوكم مرات ، لكن رأفة بجنون الورد يسامح . وردته الاخيرة يرميها دائمـا للساكنة في الطابق الارضي . رحمة بجنون الورد رمتا له يوما منديلا . حلم في تلك الليلة برياض الورود يقطفها بجنون الفرح والمناديل تتساقط عليه من نافذة امرأة المنديل . يوم المنديل خير من الف يوم . سلام هي المرأة بعد يـوم المنديل هكذا صار يقول لكل من يعرفه . أخذ يؤرخ لحياته بيـوم المنديـل

هذا حدث قبل يوم المنديل . هذا حدث بعد يوم المنديل . حتى المرأة قبل المنديل ليست هي المرأة بعد المنديل . لم يعد يعطي وروده لكل النساء . الباقة المشتراة أو المسروقة هي لامرأة المنديل . مجيئة بالورد ووجودها على النافذة وعد وميعاد بينهما .

حين شفي الزوج من زكامه شم رائحة مجنون الورد في جسد امرأته . حين شفي من مرض عينيه رأى المجنون يقفز من النافذة وراي امرأته تخرج بخفة من الباب راكضة خلف مجنون الورد . كان أسمن من أن يركض وراءهما .

جملت وجهها الليلي بالمساحيق وقطرت قطرات زرقاء في عينيها وفاح منها عطر غال . أخرجت من خزانة ملابسها الصغيرة ثوبا ثمينا أكثر شفافية وملوسة والتصاقا بجسمها من كل أثوابها الاخرى وحذاء جميلا فضي اللون كعباه عاليان . لفته في ورقة مجلة أجنبية تشتريها من أجل حذائها الجديد والبالي . احتذت البالي وتأبطت الجديد . قبل أن تخرج ألقت نظرة على دميتها الكبيرة في لباسها الجميل التي اشترتها بمالها عندما كبرت وصارت تكسب .

اخوها الاصغر جالس قدام عتبة الباب يلاعب قطة صغيرة بكرة ورقية مربوطة بخيط وكلب أمامه سقيم يستلقي في الظل يغالبه النعاس والتعب . ترك القطة وأقبل يودعها . أعطته قطعة نقدية صغيرة وقبلته . رجاها إن تعود في المساء باكرا قبل أن ينام . أخوها الآخر بعيدا يلعب الكرة مع فرقة صغار الحي . نساء وأطفال يستسقون من حنفية الحي في ضجيج وسباب . طفلة تتبرز قرب السياج . تنكث برازها بعود صغير وتشمه . كلب هزيل يحوم حولها. عيناه تكبران وذيله يبصبص. فتاتان تتشاتمان حول صف سطليهما. احداهما رفعت ثوبها كاشفة عن أسفلها العاري وقالت لغريمتها في الصف حول الحنفية :

ـ هذا ما تساوينه أنت عندي .

أبرزت لها الاخرى وسطاها في وجهها ثم تشابكتا لكما وشدا وشتما . شبان جالسون على الارض الى الحائط مستندين يدخنون بسأم يتأملون ما يحدث بسخرية . صفر لها واحد من هؤلاء الشبان بغزل ضاحك وطفلان يستجديانها . أعطتهما قطعتين نقديتين ومضت في الوحل بمسكنة وحرج . بعضهن ينظرن اليها باعجاب وبعضهن بحقد وحسد .

قرب مدخل الحي الموحل خبأت البالي وأخذت الجديد ثم مشت في الطريق المزفت الى المدينة الجديدة .

شاعر الحي الكسيح يكتب عن هذه الاشياء في حيه وأيضا عن أشياء في المدينة ما عاشها وما رآها لكنه سميع ممن رآها أو رواها . هذه بعض من مذكراته :

أمس فكرت من جديد في حياتي من خلال الاصفار. من اليمين الى اليسار فكرت في قيمة الاصفار . فكرت في كل شيء من خلال لا شيء . « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » . ما أصابك من اليمين فمن الله وما أصابك من اليسار فمن نفسك . الله يقسم وأنتم تجمعون . لكنكم لا تعدلون في شيء والله خير من يعدل في الحساب .

أن تحطموا كل الاصنام . هذا ما تعرفون . لكن الله لا يمكر بكم ان كنتم تعدمون ما تبنون لأنفسكم .

جنس ! جنس ! جنس ! ها هو ذا شقاؤكم فاطلبوا سعادة الوعد ان كنتم صابرين ومؤمنين . انني غاضب على هذا الجوع البشري الذى لا يكف حتى الموت . لم أعد أذكر كبريائي الذي كان يمنعني من ان احب . البعد الحلو كان كل عزائي . دائما تغلبني الفجور الاقوى من العفاف في نفسي . أبدا ما جاءتني هي التي في أوانها أشتهيها . تلك التي تتحسرون عن فراقها وتملون من بقائها . الجمال ! آه ! من الجمال الذي يفترسني مالكا اياه سواى ساخرا مني . لم أفهم امرأة واحدة الا في نزوات الخيال : في الرشفات لا في رشفة . ربما فكرت في آكلهن . كانت رغباتي موزعة فيهن . الحياة التي فكرت فيها لم أعشها . سلوا ذلك الذي عاشها ولم يفكر فيها !

انه اعتراف آخر كأس وآخر صديق يغادرني . سلوا ذلك الذي هو في غربته !

لي صديق يقهره الجمال مثلي يكرهني في عيني زوجته ويحبني في أعين العابرات في حياتي . سلوا ذلك الذي مل من الوجه الاليف ! طفت في البيت الحرام حول امرأة ثلاثة أيام قهرا وبعدها ما عدت اطوف اكثر من يوم في شمسه او في قمره . ان عقد الاستهلاك هو كل كرامة ذلك الصديق وصار عندي كلاما في آخر الليل وآخر كأس وآخر افلاس . اذ كنت دوما كارها للفرض فمن يكون لائمي وحاكي في السنة ؟ نحن اخوة في الخيار وأعداء في الجبر .

ان عزاب هذه المدينة أدمنوا على الليل والكأس مثلي أو على الثواب والهجرة قبل الثلاثين فرارا من الجنون أو الجهل والموت . أنا اليوم وحيد مع كأسي . مثل الذين يهربون الى المشارب والمواخير لعلهم يستعيدون شيئا من عزوبتهم . انهم يمجدون الخمر في المساء ويلعنونه في الصباح . كل نفس ذائقة عزوبتها ومجدها ولعنتها . لكنني وجدت في كل المواخير أخواتي وأخوات

أصدقائي . رأيت هذيان الليل يذيب مساحيقهن ويمزق أقنعتهن واسنانهن ينخرها السوس في عز شبابهن . سمعتهن يستعدن عفاف طفولتهن في الاناشيد المدرسية المبتورة في ذاكرتهن والروايات الحزينة وأفلام الغرام والذكريات القديمة والحديثة .

انه اعتراف آخر كأس وآخر فلس وآخر صديق يسافر الى عالم فاتني ان أزوره في زمن بلا جواز سفر ولا نقود .

في الشارع الرئيسي دخلت البنك . أخرجت شيكا من حقيبتها الجلدية الجميلة، الثمينة ووقعت اسمها بصعوبة ويدها راعشة. نظر الصراف بفضول الى الشيك واليها . سحبت مائتي درهم وخرجت مضطربة . اشترت من دكان مجلة نسوية مصورة وعلبة سجائر مذهبة .

في قاعة شاي مدام بورط جاءتها الخادمة الجميلة ووقفت بلطافة . انها تعرف سخاءها معها . قالت بصوت تشوبه بحة تعب الليل :

ـ اعطيني عصير برتقال ، حليبا باردا وخبزا مشويا بالزبدة والمربى .

في السوق الكبير صاحت أمها وعيناها على حارس الامن يطارد بعيدا عنها البائعات المتجولات مثلها .

ـ ها البصل ! ها الفجل ! ها الليمون !

في الحي صرخ أخوها اللاعب :

ـ جـوول ... !

واخوها الاصغر يلاعب القطة الصغيرة قرب شاعر الحي الكسيح والكلب السقيم ينعش أمامهما ، وطفل في يده طائر دوري يموت يبول عمدا على حذائها في السيـاج

طنجة في 4 ـ 4 ـ 1978